

عدد خاص بالملتقى الدولي

(العلوم الإسلامية من الرصيد التاريخي إلى التفعيل الحضاري)

دور الباحث في العلوم الإسلامية في ظل المتغيرات الراهنة

من الانسداد إلى التفعيل الحضاري: نظرة استشرافية

The role of the researcher in Islamic sciences in light of the current changes- From blockage to civilized :activation Peculiar

د. سهام عبد الرزاق*

جامعة باتنة 1، كلية العلوم الإسلامية (الجزائر)

sabderrezak77@gmail.com

تاريخ النشر: 2022/11/30

تاريخ القبول: 2022/07/02

تاريخ الاستلام: 2022/06/10

الملخص:

يواجه الباحث في العلوم الإسلامية في العصر الراهن تحد كبير يتمثل في استعادة دوره الريادي في تقديم العلوم الإسلامية بالصيغة الراقية والفاعلة واخراجها من الانسداد الوظيفي إلى التفعيل الحضاري وصناعة المعنى للاستجابة لمتطلبات الفترة الراهنة والاجابة عن سؤال الحركية الفعلية والتفعيلية لهذه العلوم. كما يواجه جملة من الراهانات المنهجية في قدرته على التمثل لمتطلبات الفكر المعاصر لإنتاج صيغة وظيفية للعلوم الإسلامية تستجيب للمتطلبات المعرفية في ظل المتغيرات

الراهنة التي تعج بها الساحة المعرفية. وكل هذه التحديات والراهانات والمتغيرات تقف أمامه وهو يعيش حالة قلبية تطرح أمامه المعطيات العلمية التي يجب أن تبني عليها شخصيته المسلمة ذات المعايير الأخلاقية التي تميزه عن أي انسان في المعمورة
وتسعى هذه الورقة البحثية إلى نسج الدور الأخلاقي والعلمي والمعرفي والتفصيلي لهذا الباحث ليحقق الشهود الحضاري ويفوز برضا الله تعالى وفق جدلية القلب والعقل والعلم.
الكلمات المفتاحية: دور الباحث في العلوم الإسلامية؛ التفعيل الحضاري.

* المؤلف المرسل

Abstract:

Researcher in Islamic sciences in the current era faces a great challenge represented in restoring his pioneering role in presenting Islamic sciences in a high-end and effective format and bringing them out of functional obstruction to civilization and meaning-making to respond to the requirements of the current period and answer the question of actual and operational mobility of these sciences. It also faces a number of methodological bets in ability to represent the requirements of contemporary thought to produce a functional formula for Islamic sciences that responds to cognitive requirements in light of the current changes in the knowledge arena. All of these challenges bets and variables stand before him while he is in a heret condition that presents him with the scientific data on which his Muslim personality must be built with ethical standards that distinguish him from any human being in the world. This research paper seeks to weave the ethical scientific cognitive and activating role of this researcher to achieve civilized witnesses and win the approval of God almighty according to the heart mind and science.

Keywords: The role of the researcher in Islamic sciences; civilized activation.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة:

تواجه الجامعات الإسلامية ومراكز البحث العلمي في الوقت الراهن إشكالية جدلية جادة تتمثل في مكانتها المعرفية والتغيرية على حد سواء، وفي مدى إمكانية أن تصبح محرك قوة ذو أبعاد وظيفية في تحريك المتغيرات التفعيلية على الساحة الواقعية، وعلى امتلاكها للوسائل المعرفية التي يمكنها بواسطتها المساهمة في تشخيص الإشكاليات الفعلية لتجاوزها من أجل السير بخطى ثابتة نحو التأثير في المعطيات الحضارية في ظل المتغيرات الراهنة. كما تواجه إشكالية في غاية التعقيد وهي مدى استجابة البحوث التي تنتجها الكوادر التدريسية وطلبة الدراسات العليا لمتطلبات الواقع العلمي والمعرفي والواقع التطبيقي ومسيرة روح العصر؛ ذلك ان الباحث في العلوم الإسلامية يعيش - على غرار قرينه بباقي العلوم- في الفترة الراهنة مأزقا منهجيا حادا وصل به إلى وضعية اللا فعالية فعجز إلى حد بعيد عن إخراج العلوم التي يشتغل بها إلى صناعة المعنى وموافقة مستجدات عصره ومحاكات المتغيرات النازلة به؛ فدخل بذلك علبه أصبح من خلالها يلوك ما قيل دون أن يخوض في ما يجب أن يقال؛ فدارت رحاه وما انتجت إلا جعجعة فكرية يسمع صداها ولا يرى مداها؛ ودخلت بذلك العلوم الإسلامية حيز الاتهام بانها لا تصلح لكل زمان ومكان وبأن التاريخية تحكمها وبانها لا تصلح لترتقي إلى مستوى العلوم وإنما يليق بها أن تبقى رهينة المساجد للوعظ والتذكير بالآخرة لمن أراد أن يتذكر الآخرة أما من أراد الدنيا فعليه بجملة من العلوم التي ظنها الكثيرون غير مشروعة لأنها لا تنتمي إلى العلوم الشرعية.

وحدثت الهوة واتسعت الفجوة وتفرق الهم إلى همين؛ هم البحث في العلوم الإسلامية نفسها ومناقشة قضية التراث والتأصيل واستجلاب حضورها الواقعي بعد ترقيتها والسير بها نحو الحركية، وهم علاقتها بباقي العلوم التي أريد لها أن تكون بعيدة عنها والسعي نحو البينية للتكامل المعرفي. وأصبح الباحث المسلم رهين الصراع الفكري تتقاذفه جملة من العقبات يتعثر بها الواحدة تلوى الأخرى كي يصل إلى أفق مسدود يدخله في كثير من الأحيان إن لم نقل كل الأحيان قفص الاتهام وي طرح أمامه جملة إشكالات وتساؤلات عن دوره الفعلي للخروج من هذا المأزق المنهجي الخطير وتقديم العلوم الإسلامية للإنسانية تقديمًا صحيحًا من خلال شخصه ابتداء ثم من خلال البحوث الجادة التي ينتجها.

الإشكالية:

بناء على ما سبق ولجديية الموضوع وواقعية الآثار المترتبة عنه كان لزاما البحث عن دور الباحث في العلوم الإسلامية في ظل هذه الظروف المعرفية العالمية من اجل اصلاح العلوم الإسلامية والسعي لتأسيس وعي استشرافي جديد يضع الدور الرسالي للباحث الموضوع الصحيح ويجيب عن جملة التساؤلات الآتية:

- لماذا لم يستطع الباحث في العلوم الإسلامية الاستجابة للمتطلبات الواقعية للمجتمع من خلال أبحاثه الأكاديمية.

- ما هي المتغيرات الراهنة والتحديات المعاصرة وما مدى تأثيرها على الباحث وما هي المتطلبات المنهجية والعلمية لتفعيل العلوم الإسلامية وترجمتها إلى محرك حضاري يضمن للإنسانية الاستقرار.

- أين يقف الباحث أمام ثنائية القلب والعقل، وثنائية التراث الأصيل وثقافة العصر وإلى أي مدى يمكنه ضبط دوره لنسج العلاقة بينهما والابداع في معايشة النوازل وفق المقاصد الشرعية.

- ما السبب في الكثير من المشاكل الاجتماعية والدولية رغم البحوث الهائلة التي نجود بها الجامعات ومراكز البحث الإسلامية وهيئات العلماء المسلمين والمفكرين والباحثين.

- أين الخلل في غياب التفعيل الواقعي للأبحاث التي تزخر بها المكتبة الإسلامية .

-كيف يمكن للباحث في العلوم الإسلامية الخروج من مرحلة الانسداد المعرفي وصياغة مناهج معرفية لتحويل العلوم الإسلامية إلى مولد معرفي لتفعيل المعطيات الحضارية .

كل هذه الأسئلة واسئلة أخرى تدور حول معرفة الدور التبليغي الأساسي للباحث في العلوم الإسلامية كورث رسالي عن الأنبياء والرسل للمضي قدما في توجيه الإنسانية إلى التوحيد والخروج بها من مطبات الشرك المتعددة والمتنوعة تمثل إشكالية دقيقة تدعو إلى محاولة البحث فيها والاجابة عنها؛ من أجل ذلك أردت المشاركة في هذا المؤتمر الجدي بموضوع أبحث من خلاله عن دور الباحث في العلوم الإسلامية فكان هذا البحث الموسوم ب:

"دور الباحث في العلوم الإسلامية في ظل المتغيرات الراهنة من الانسداد إلى

التفعيل الحضاري نظرة استشرافية."

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة معرفة الخلل المنهجي لدى الباحث في العلوم الإسلامية الذي أدى إلى الفجوة الرهيبة الموجودة بين المؤسسات الأكاديمية للعلوم الإسلامية وبين المشاكل الواقعية التي يعاني منها الانسان فبالرغم من الوجود الهيكلي والتنظيم الموضوعاتي وتخرج الالاف المؤلفة من الباحثين على مستوى هذه المؤسسات والتضخم الرهيب الذي تعانيه المكتبات التابعة لها إلا أن التأثير الواقعي غائب تماما وفهم سبب غياب أو تغييب التطابق التفاعلي للبحوث الواقعية وتنزيلها على المجتمع الإنساني لتطبيق حيثياتها ونتائجها على الواقع لمحاولة الإصلاح.

كما تهدف إلى محاولة معرفة السر في شخصية الباحث المغيب فعليا عن اهتمامات المجتمع الإنساني وبعده غير المبرر عن محاولة لمس بحوثه الأكاديمية للواقع المعاش. كما تهدف إلى محاولة الوصول إلى معرفة الدور الحقيقي للباحث في العلوم الإسلامية وإخراجه من مجرد كونه مؤلفا إلى جعله مطبقا لما ألفه من خلال تدريسه وتفعيله في الواقع المعرفي والتطبيقي الواقعي ووصوله لرتبة الباحث الفقيه. كل ذلك بعد ذكر المتغيرات والتحديات المعاصرة.

خطة البحث:

المقدمة.

المدخل: مقدمات منهجية للباحث في العلوم الإسلامية.

*1 خصوصية تكون الباحث في العلوم الإسلامية

*2 إشكالية العقل المسلم / القلب المسلم

*3 (القلب والفقه والعلم) الثلاثية الضرورية لبناء شخصية الباحث في العلوم الإسلامية.

المبحث الأول: أزمة العلوم الإسلامية والانسداد الوظيفي.

المبحث الثاني: المتغيرات الراهنة التي تواجه الباحث في العلوم الإسلامية.

- المتغير الفكري. / المتغير التقني / المتغير الأخلاقي / المتغير الوقائعي والواقعي.

المبحث الثالث: دور الباحث في العلوم الإسلامية للخروج من الانسداد الوظيفي.

- الدور البنائي / الدور التجديدي / الدور التفاعلي.

الخاتمة.

مدخل:

1- المكانة الخاصة للباحث في العلوم الإسلامية:

تعد مكانة الباحث مكانة راقية؛ إذ هو الشخص القادر على سبر أغوار الحياة العلمية والتنقل بين الأفكار وتطبيق الأفكار من أجل الرقي بالحياة الإنسانية للقيام بالدور الاستخلافي المنوط بها، وللحفاظ على الحياة بما يليق بها ليحيا الانسان حياة سعيدة وهادئة ومطمئنة. وهذه المكانة تتعلق بكل المجالات التطبيقية الطبيعية والصناعية كما تتعداها إلى الإنسانية والاجتماعية. وتأتي مكانة الباحث في العلوم الإسلامية على رأسها، ووفق هذه المكانة المهمة والراقية تنبثق خصوصية تكون الباحث في العلوم الإسلامية لما له من دور من جهة ولما له من خصوصية بناء من جهة أخرى.

إن تكون الباحث في العلوم الإسلامية هو عمل ذو نسق فريد ومخرجات معقدة ينطلق من مسؤولية دقيقة ويتجه نحو مسؤولية أدق؛ فإذا كان أي باحث له منظومة معرفية خاصة في إخراجها إلى الوجود المعرفي فإن الباحث في العلوم الإسلامية له منظومة علمية دقيقة ومعقدة يجب عليه الأخذ بها قناعة وتمثلها سلوكا والاقتران بها قلبا والتقوُّل بفقها لتصبح منهج حياته الشخصية والعلمية معا وهنا تكمن الخصوصية وينبثق الفارق وتظهر الصبغة للعلوم الإسلامية.

ولتوضيح الفكرة:

إن أي باحث في أي مجال يسعى ابتداء إلى التكوين المعرفي وفق المنظومة المعرفية في ذلك المجال؛ وهدفه هو اكتمال تكوينه الدقيق في تخصصه بغض النظر عن شخصيته ونمط عيشه وكسبه وطريقة تفكيره، وبغض النظر عن تفاعله وانفعاله وتفعيله في ذلك المجال إلا من الناحية المعرفية؛ فشغله الشاغل هو تحصيله المعرفي وفهمه لذلك التخصص للتعامل معه وبه في المجال المعرفي فقط.

أما الباحث في العلوم الإسلامية فهو يتكون ضمن المنظومة العلمية الإسلامية الدقيقة ويبني من خلالها شخصيته ونمط عيشه وكسبه وطريقة تفكيره، كما يبني تفاعله وانفعاله وتفعيله لتصبح العلوم الإسلامية صبغته التي تصطبغ بها حياته. وهنا يأتي الفارق الدقيق والعميق بين الباحثين في جميع التخصصات وبين الباحث تخصص العلوم الإسلامية.

وهذا ما يجب أن يفقهه الباحث في العلوم الإسلامية؛ لأنه بتصديده لهذه المهمة المقدسة قد تحمل عبئ الرسالة والتبليغ إلى جانب مسؤولية التحمل التي محورها التكليف لكل مسلم بلغ مرحلة الوعي العقلي؛ وتحمل هذا العبئ أصبحت مهمته العمل الجاد للقيام بدوره العلمي على أصح وأكمل وجه؛ طبعاً بحسب وسعه، المهم أنه يجب أن يفقه أنه باختيار هذا الطريق وجب عليه تحمل مشاقه والسعي بجدية تامة نحو بناء ذاته وتبليغ غيره، كما وجب عليه أن يعي أن البحث في العلوم الإسلامية هو منهج حياة وليس شهادة تطلب أو منصب يسعى لتحقيقه؛ وإنما هو طريق رسالي، وأنه في حد ذاته عبادة إلى جانب الصلاة والصوم "وهكذا تستهدف فلسفة العبادة في الإسلام تحقيق الأثر الفعلي وحصول التحول الكيفي في حياة الناس"¹، وبهذا الوعي تتضح أمامه سبل سلوك هذا الطريق فيحدد المواضيع التي يجب أن يبحثها ويحدد المنهج ابتداء وهو محل الأشكال، ويكون منطلقه في هذا وذلك هو القرآن الكريم والسنة الصحيحة وبالتالي يستزيد منهما ويتزود بهما لغرضين متكاملين؛ الغرض الأول هو سبر أغوارهما كمصدرين أساسيين للعلم تبعداً وتصديقاً أن القرآن الكريم "شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة، وهو منهج يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، وهو نور يخرج به الله الناس من الظلمات إلى النور، وهو تزكية وتذكرة وبشرى ونذارة، وهو حبل الله المتين وصراطه المستقيم"² والغرض الثاني هو إيجاد المنهج الصحيح الذي يستطيع بواسطته معالجة القضايا الحياتية وتقويم المسار الإنساني وفق الدور الاستخلافي الذي جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَذَّأ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ³﴾، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ⁴﴾، كما أنه بواسطته يستطيع امتلاك التغيير وصناعته و"التفاعل بين عطاء الوحي، وتطلعات العقل، وأشواق النفس، بحيث ارتقى بموقع الانسان ووظيفته من مجرد وسيلة وأداة للتغيير والانجاز الحضاري إلى مستوى جعل معها هدف التغيير؛ أي جعله مسخراً للكون وما فيه، بدل أن يكون مسخراً له فهو الانسان المكلف، وفي الوقت نفسه الانسان المكرم"⁵

¹ فتحي يكن، الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، دط، 1983، ص:27، ضوض

² طه جابر العلواني، نحو منهجية معرفية قرآنية، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط:1، 2004، ص:07.

³ البقرة:30.

⁴ الأنعام:165.

⁵ عمر عبيد حسنة، رؤية في منهجية التغيير، المكتب الإسلامي، بيروت، ط:1، 1994، ص:23.

2- إشكالية العقل المسلم والقلب المسلم:

تعد إشكالية العقل بصفة عامة والعقل المسلم بصفة خاصة إشكالية معرفية كبيرة انجرت من ورائها مشاكل فكرية عويصة وعميقة أدت إلى صراعات وهمية اقتاتت من جهد الانسانية والأمة الإسلامية؛ فاستنزفت جهود علماءها وأخذت من عمرها السنين الطوال كبرت من خلالها شقة الخلاف وبنان الاختلاف وتسارعت الأمم من حولها تبني وهي في محل الخصام تهدم عراها وتشل حركتها فباتت أوضاعها متردية على جميع الأصعدة و"الباحث في أحوال الأمة الإسلامية لا يصعب عليه تبين ما هي عليه من تخلف حضاري، وهوان سياسي، ومعاناة إنسانية، رغم كل ما تتمتع به من إمكانات بشرية ومادية وما تمتلكه من قيم ومبادئ سامية"⁶، غير أن الخلاف الفكري أحدث شللا على مستوى الإمكانيات وجمودا على مستوى القيم، ويعد الخلاف الفكري المشهور تحت مسمى الخلاف بين الوحي والعقل والذي تسبب فيه بشكل رئيس عدم قيام المفهوم الحقيقي للعقل وعدم تأصيل اللفظة وتمحيص معناها بالعودة إلى المرجعية الإسلامية والمصدر الأساس الكتاب والسنة الصحيحة؛ فأصبحت المسألة تشكل خلافا فكريا لا عقديا ظن الباحثين في العلوم الإسلامية أن الخروج منه هو من باب الدفاع عن الإسلام فبدلوا الجهد الصحيح في المكان الخاطئ لأنه بكل بساطة قام لينافح عن الوحي وأنه لا يناقض العقل في حين تشبث بالمفهوم الخاطئ والذي أملي عليه من المفاهيم الغربية فأصيب بالدوار الفكري وانفرط منه عقد المنهج فتاه.

وهنا وقعت الثغرة العلمية في قلب الباحث؛ رغم انه توجب عليه أن يتجاوزها بتحرير معنى العقل على أنه عملية من عمليات القلب -وليس آلة كما هو معروف في نظرية المعرفة الغربية التي تجعله أداة إلى جانب الحواس في جلب المعرفة- وأنه مرتبط ارتباطا كاملا بالإيمان فكلما وجد الإيمان وجد العقل وإذا ما غاب الإيمان غاب العقل؛ فإذا فهم الباحث الثنائية (قلب، عقل) وضع كل مسألة في نصابها ووازن بين عمل قلبه وما يتلقاه من معارف وبنى بعد ذلك المنظومة العلمية اعتمادا على الوحي؛ حيث أن العلوم الإسلامية وحدها تمتلك هذه المنظومة؛ وبناء على هذا يصبح الشغل الشاغل للباحث في العلوم الإسلامية ابتداء تنشئة قلبه تنشئة علمية أصيلة مبدؤها قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ⁷ وتبدأ رحلة التوحيد في قلبه لتُشربه وتخرجه من التقليد إلى الاجتهاد تخرجه من علم

⁶ عبد الحميد احمد أبو سليمان، أزمى العقل المسلم، دار الهدى، بيروت، لبنان، ط:1، 2003، ص: ص:21.

⁷ محمد، 19.

المشايع وتتبع السلف دون علم، وتربطه بالمقابل بالقرآن الكريم؛ ذلك أن التوحيد "خروج من الأبائية وعبادة الأباء، وهذه الفكرة هي الأرضية التي نبتت فيها كل الإنجازات البشرية"⁸، وبهذا يعود إلى النبع الصافي ويتخطى كل التراكمات التي من شأنها أن تضرب الرؤية والتي غطت الوحي الالاهي؛ إلا أن يستعملها- أي التراكمات المعرفية- لتفسير مهم أو شرح مشكل لكن العلاقة المباشرة تبدأ من القرآن الكريم طهارة لقلبه ابتداء؛ فإذا طهر القلب أضاءت البذرة الطيبة التي غرسها الله تعالى في قلبه؛ وهي توحيد الربوبية وارتوت بعد ذلك برواء توحيد الألوهية فنضب القلب بالايمان فدخل دائرة العقل وأصبح عاقلا وفقا للمعادلة: **قلب+ايمان=عقل**؛ فإذا تعقل القلب أصبح صاحبه ممنهجا وحكيما، قال الله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ﴾⁹، التي هي رزق؛ إذا اتجه هذا القلب الى القرآن انتفع به وإذا اتجه إلى الواقع انتفع ونفع به، وبهذا يصير الباحث فقيها و" من أراد الله به خيرا يفقهه في الدين"¹⁰ كما جاء عن رسول الله ﷺ، والفقه المقصود ليس المصطلح المتداول بل اللفظ القرآني؛ ذلك أن "الفقه في لغة القرآن ليس هو الفقه الاصطلاحي، بل هو فقه في آيات الله وفي سننه في الكون والحياة والمجتمع"¹¹؛ وبهذا يكون قد حل أخطر القضايا في تشكيل القلب المسلم المعاصر وهي "الخلط بين معارف الوحي المعصومة ومدارك العقل المظنوننة، خاصة في إطار التعامل مع التراث، أو الموارد الثقافية بشكل عام، التي تعتبر ذاكرة الأمة، ومخزونها الثقافي، والمصدر الأساس في عملية التشكيل، وذلك بمحاولة نقل القدسية والعصمة، من قيم الكتاب والسنة، إلى الاجتهادات البشرية، التي لا تخرج في حقيقتها، عن محاولات بشرية لتنزيل القيم على الواقع المعاش، والاستجابة لمعالجة مشكلاته، في ضوء قيم الكتاب والسنة... تلك الاجتهادات التي يجري عليها الخطأ والصواب، والتي جاءت ثمرة لواقع معين، بمشكلاته ومعاناته، وليس بالضرورة أن تكون قادرة على حل مشكلات جميع العصور، مع اختلاف الزمان والمكان..."¹²

⁸ جودت سعيد، اقرأ وربك الأكرم، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط:2، 1993، ص: 189.

⁹ البقرة، 269.

¹⁰ أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب: من يريد الله به خيرا يفقهه في الدين، فتح الباري، 1/175.

¹¹ يوسف القرضاوي، أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، دط، دت، ص: 24.

¹² عبد الرحمن الطبري، العقل العربي وإعادة التشكيل، مقدمة: عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة، قطر، ط:1، 1413، ص: 17، 18.

وتأتي العلاقة الثنائية (قلب، إيمان) ثم الثنائية (قلب، عقل) لتصل إلى الثنائية (التقوى، العلم) لتحقيق قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ﴾¹³، فالعلم يأتي بالإيمان؛ لأن "الإيمان ليس مجرد مقولة أخلاقية، بل هو في الحقيقة وفي المقام الأول مقولة معرفية، هو بتعبير آخر مفهوم مرتبط بالمعرفة وبصحة الأخبار التي يتأسس عليها"¹⁴

فإذا ما امتلك الباحث هذه القناعة العلمية التي تبين له أن العلوم الإسلامية تركز على قاعدة تأسيسية مبنية على الغيب ومحفورة في القلب البشري منذ الأزل ورثته العلم وجعلته يحمل بذرة علمية غيبية عليها المعول في بناء الموقف العلمي المرتقب الذي عليه مدار الفقه؛ فأصبح القلب البشري بهذا الميثاق الرباني يملك الدليل العلمي الابتدائي ليسير وفقه ويتوجه به نحو رب العالمين تصديقا وعملا وتوحيدا من جهة ويتجه به نحو بناء منهج علمي دقيق من جهة أخرى. فالباحث يأخذ بعين الاعتبار هذه الخلفية العلمية ويرقب في نفسه ابتداء هذا البناء العلمي التوحيدي وينطلق منه ليصل إليه، وهذه هي الحقيقة التي سيعمل من خلالها ويبقى رهينها وهو يبحث ويتعلم ويعلم، استطاع أن يسير بالعلوم الإسلامية سيرا منهجيا ومنطقيا يفرق من خلاله بين علوم الآلة وعلوم الغاية فلا يتيه بعد ذلك فيجد نفسه يستهلك الوقت والجهد دون الوصول إلى المفيد. وهذا ما نراه اليوم في التخصصات الدقيقة وفي القضايا الفكرية المطروحة للنقاش في حين غابت القاعدة التي وضعها الشاطبي بقوله: كل مسألة لا ينبني عليها عمل فتركها أولى¹⁵.

¹³ البقرة:282.

¹⁴ إسماعيل راجي الفاروقي، التوحيد ومضامينه على الفكر والحياة، ترجمة: السيد عمر، مدارات للأبحاث والنشر، دط، 2014، ص:98.

¹⁵ أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات، المقدمة الخامسة.

المبحث الأول: أزمة العلوم الإسلامية والانسداد الوظيفي.

والمصدقية الواقعية للمؤسسات القائمة على إدارة هذه العلوم، والمصدقية لا تتعلق بالمادة العلمية التي تنتجها رغم ما فيها من نقاش؛ ولكن بمدى القدرة على ترجمة هذه المادة إلى واقع لصناعة المعنى ومشاركة الانسان في حياته الفعلية، والاشكالية المنهجية مزدوجة؛ تتمثل في إشكالية منهج التلقي واشكالية منهج الالتقاء والاسقاط على الواقع الفكري والواقع العملي التطبيقي .

ونستطيع القول أنه لم تمر هذه العلوم بظروف أصعب من التي تمر بها في هذا العصر الذي شكل حجر عثرة أمام مسيرة البحث في العلوم الإسلامية فأردته رهين متاهة صعبة التجاوز صعبت مهمة إخراجها إلى التفعيل الواقعي. ووجد الباحث نفسه أمام تحد واقعي فقام ينفذ؛ فاجتهد وأصاب واجتهد وأخطأ، غير أن الأوضاع لم ترتق إلى مستوى التغيير لأن الجهود في كثير من الأحيان جهود فردية، وإن تجاوزت الفردية إلى العمل الجماعي فإن هذه الجماعة إما تنحاز لمذهب أو تسير تحت لواء العصبية الفكرية وليومنا هذا للأسف لم تستطع أن تكون جماعة منهجية مرجعيتها الكتاب والسنة الصحيحة والناظر" في حال العلوم الإسلامية اليوم وبعيدا عن كل أشكال المجاملة ومدح الذات، لا يحتاج إلى جهد كبير ليتبين الوضع غير المريح الذي صارت إليه، فبعد أن كانت تمد الأمة بأسباب القوة، وتحافظ على هويتها في وجه أشكال الالحاق والتشويه، أضحت وقد تغير حالها وتضاءل دورها شيئا فشيئا، حتى حلت محلها منظومات أخرى مزاحمة لها على مواقعها الأصلية، إلى الحد الذي قلص بشكل كبير من دورها في التفاعل إيجابا مع قضايا الداخل والخارج..."¹⁶. والمتأمل للواقع العلمي يجد أن أسباب هذه الأزمة كثيرة ومتشابكة يمكن أن نحصر أهمها في النقاط الآتية مع شيء من الاختصار:

الابتعاد عن القرآن الكريم تعبدا وتعلما وعدم انبثاق أغلبية العلوم منه:

تعتبر هذه الإشكالية على رأس الأسباب التي أدت إلى الأزمة وإلى تفاقم الأزمة منذ زمن بعيد؛ لأن القرآن الكريم هو المحور الأساس للعلوم الإسلامية وإذا صلحت العلاقة التعبدية والعلمية معه صلحت المسيرة العلمية للباحث واستقام البحث في العلوم الإسلامية. ولعل لقائل أن يقول إن الأمة الإسلامية لم يفك رباطها مع القرآن الكريم وإنما هي دائمة التلاوة

¹⁶ كمال ججيش، المنهجية في العلوم الإسلامية، مظاهر الأزمة ومفاتيح التجاوز، مجلة جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، مج:2، العدد:27، ص:229.

والحفظ؛ فنقول إن الابتعاد الحاصل ليس على مستوى التلاوة والحفظ وإنما على مستوى الفهم وهذا ما حذر منه رسول الله ﷺ بقوله: "...يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم..."¹⁷؛ أي لا يصل تأثيره إلى قلوبهم كي يغير معتقداتهم ويعدل سلوكياتهم مما يدخلهم دائرة الهجر في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾¹⁸؛ فالهجر كما يعني هجر التلاوة يعني كذلك هجر المعنى والعمل¹⁹

غياب الصيغة المنهجية للتعامل مع التراث:

لقد بدأت الأزمة الفكرية للعلوم الإسلامية جراء عدم إيجاد الصيغة المنهجية للتعامل مع التراث الهائل الذي أنتجته الجهود البشرية على طول المسيرة العلمية، والذي عالج من خلاله العلماء أوضاعهم الواقعية من خلال عرضها على القرآن الكريم والسنة الصحيحة واجتهاد العلماء، وبدل التعامل مع هذا التراث العلمي الزاخر بصيغة القدوة أصبح التعامل بصيغة التقليد ولا تزال الأزمة مستمرة حتى مع اللذين يدعون إلى ترك التقليد لأنهم للأسف ينادون بترك تقليد الموروث الإسلامي في مقابل تقليد التراث الغربي والمناهج الغربية، وانتقلت القداسة جراء هذا التقليد من المرجعية الحقيقية وهي القرآن الكريم والسنة النبوية إلى الأشخاص اللذين تعاملوا مع القرآن والسنة فاختلطت المفاهيم وأصبح الحديث بقال فلان وعلان أكثر منه بقال الله وقال رسول الله ﷺ.

ولعلنا نلاحظ الآن في كثير من المؤتمرات والندوات التي لها طبعات بالعشرات موضوعها الأساس فكر شخص ما مثل مالك ابن نبي وعبد السلام يسين والنورسي، والعجيب أنه قلت لدرجة الندرة المؤتمرات التي تتحدث عن موضوع معين من خلال القرآن الكريم أو حديث النبي ﷺ؛ فالفكر التقديسي للأشخاص أصبح هو الفكر السائد وهو المرض الخبيث الذي أدخل الفكر الإسلامي دائرة الشرك من حيث لا يدري.

¹⁷ متفق عليه.

¹⁸ سورة الفرقان:30.

¹⁹ ينظر: ابن القيم، الفوائد: طبعة نزار مصطفى الباز، الرياض، ص:111.

الانتقال من التكاملية إلى التخصص إلى التخصص الدقيق (تخصص التخصص):

تأزمت الأوضاع عندما بدأ تقسيم التخصصات ووسمها بالإسلامية وغير الإسلامية أو الشرعية وغير الشرعية أو الدينية وغير الدينية، وبدأ تفريغ العلوم الإسلامية من غايتها وأهدافها التدريسية والدراسية. فأصبحت "في واقعها الحالي تعيش أزمة حقيقية، تمنع فعاليتها وتعوقها عن تحقيق المراد من دراستها والبحث فيها، وتجعل منها مجرد علوم تُدرس لأجل الدراسة، دون أن يكون هناك غاية مقصودة أو هدف محدد من وراء هذه الدراسة"²⁰، وكان الانفصال في البداية بين علوم الوحي وعلوم الكون؛ فأصبح الطبيب غريب عن الشرع وعالم الفلك لا يلتفت إلى التفسير بعد أن كان العالم الواحد يمزج بين العلوم؛ كأبي الوليد بن رشد (1126/1198) "الذي كان الناس يفرعون إلى فتواه: في الفقه، كما يفرعون إلى فتواه في الطب"²¹.

ثم انتقل الانفصال إلى العلوم التي سميت بالإنسانية كعلم النفس و علم الاجتماع و علم التاريخ و علم الاقتصاد... وحدثت القطيعة بينها وبين العلوم الإسلامية وتشتت المواضيع وأصبحت دراستها تفتقر إلى التأصيل وتبتعد إلى حد كبير عن المصادقية العلمية والواقعية خاصة بعد أن أصبحت للنظريات الغربية القول الفصل في هذه التخصصات؛ لأنه في الأساس "لم ينشأ البحث في الظواهر الإنسانية بالآليات والوسائل العلمية في العالم العربي مثلما حصل في التاريخ الغربي بفعل عملية تاريخية ذاتها، موصولة بصيرورة في النظر إلى هذه الظواهر ضمن سياق تطور الأفكار والعلوم وتطور المجتمعات، قدر ما نشأ في سياق عملية تقليد أفرزتها متغيرات خارجية وافدة"²²

ورغم أن إمكانية تلاقي الأفكار بين هذه التخصصات والعلوم الإسلامية ممكن إلى حد بعيد لما يتميز به المنهج الإسلامي من شمولية من جهة ولما يقدمه المصدر الإسلامي كتاباً وسنة من احاطة ذات ابعاد علمية ونسق معرفي دقيق لهذه التخصصات من جهة أخرى، إلا أن هذه التخصصات تحيزت للطرح الغربي بطريقة أردتها كمن ينفخ في قربة مقطوعة كما قال المثل العربي؛ لأن الطروحات الغربية لا تصلح على الاطلاق إلا في بيتها ولا يمكن لها

²⁰ مسعود فلوسي، أزمة العلوم الإسلامية في واقع الأمة، مقال، حصائل الاعمال العلمية للملتقى الوطني الأول حول دور العلوم الإسلامية

في إرساء الهوية ومواجهة التحديات المعاصرة، 2010، جمع مبروك زاد الخير، جامعة الأغواط، ص 201.

²¹ محمد عمارة، الدين والحضارة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط:1، 2005، ص: 26.

²² كمال عبد اللطيف، تأصيل العلوم الإنسانية في الفكر العربي المعاصر الشروط المعرفية والتاريخية، مجلة فكر ونقد، العدد: 18،

أن تعالج قضايا عربية وإسلامية، ووجودها في جامعاتنا يشبه إلى حد بعيد الدواء الخاطئ الذي وصف للمريض فبدلاً من أن يشفيه يقتله.

وبعد هذا الانفصال بين العلوم الإسلامية والطبيعية والعلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية جاءت الضربة القاضية عندما دخلت العلوم الإسلامية نفسها في التقسيم والانفصال بين فروعها؛ فأصبح المتخصص في العقيدة الإسلامية بعيد عن تخصص التفسير، والمتخصص في أصول الفقه بعيد عن علوم الحديث، والمتخصص في الدعوة بعيد عن تخصص الفقه، ويمكن الجمع بين الدعوة للتخصص، وهذا التكامل التلازمي، بأن يقال: إن هناك حداً أدنى من كل فن لابد على طالب العلم والباحث أن يحيط به مع تخصصه المختار... وبهذا قد جمعنا بين التخصص والتعمق في فن من الفنون مع البعد عن مواطن الخلل.

الخلط بين علوم الآلة وعلوم الغاية:

تعتبر هذه المرحلة التي وصلت إليها العلوم الإسلامية قمة التفكك المعرفي؛ فهذه الوضعية البيداغوجية والتي ليست لها أدنى علاقة بالتنظيم العلمي أدت إلى خلط كبير في الهيكلة العلمية وأصبح التكون المعرفي مزيج من المقاييس غير المتناسقة ينبذ بعضها بعضاً دون الوصول إلى اللحمة العلمية التي هي في الأساس الهدف الأول من هذه التقسيمات؛ وعلى سبيل المثال لتوضيح الفكرة نجد علم أصول الفقه وهو من علوم الآلة يقوم مقاماً لوحده والمتخصص فيه ابتعد إلى حد كبير عن الهدف من وجود هذا المقياس وهو محاولة الوصول إلى الفهم الصحيح للقرآن الكريم؛ أي تفسير القرآن الكريم وبدل أن يسير علم أصول الفقه جنباً إلى جنب مع علم التفسير الذي هو من علوم الغاية شق كل علم طريقه لوحده مما أحدث شرخاً منهجياً أضحى فيه طالب العلم بعيد كل البعد عن الوصول إلى غايته من درس الأصول وتاه عن تكوين آلة الفهم في درس التفسير؛ ذلك أنه يجب على المفسر "أن يكون ملماً بأصول الفقه وقواعده ليصح نظره في آيات الأحكام ويعمل ذلك في الاستنباط والجمع والترجيح، حيث يكون قادراً على التفريق بين العام والخاص والمجمل والمبين والمطلق والمقيد والناسخ والمنسوخ وغير ذلك مما يقتضيه النظر في آيات الأحكام..."²³. وأصبح المتخصص في علم أصول الفقه لا يفقه التفسير والمتخصص في علم التفسير لا يفقه أصول الفقه.

²³ الشاطي، الموافقات، 2/103، 102.

المبحث الثاني: المتغيرات الراهنة التي تواجه الباحث في العلوم الإسلامية:

تواجه الباحث في العلوم الإسلامية جملة من المتغيرات تشكل له تحديات وعقبات تصعب عليه الدور المنوط به في اخراج العلوم الإسلامية للواقع لتخطي مرحلة الانسداد الوظيفي الذي ألم بالأمة وآلمها وتجاوزها إلى مرحلة التفعيل الحضاري من أجل اخراج البشرية من عبادة الدنيا إلى عبادة رب السماوات والأرض وما بينهما، وعندما تتبع هذه المتغيرا وجدتها تنقسم إلى ثلاثة محاور أساسية هي كالآتي

1-المتغير الفكري /2-المتغير الأخلاقي/3-المتغير التقني/4-المتغير الوقائي والواقعي.

وفيما يلي شرح مختصر لكل متغير من المتغيرات بحسب ما يقتضيه المقال:

1-المتغير الفكري:

توافدت في العصر الحديث جملة من الأفكار منها ما هي متوافقة منسجمة، ومنها ما هي متناقضة متنافرة أحالت الساحة البحثية إلى حلبة صراع فكري حاد تراوح بين الطروحات المتعلقة بماهية الحياة والانسان والغاية من الوجود، وأخرى متعلقة بآليات المعرفة ومنهجية نقد النص والخروج من كل المتعلقات الموروثة، وكان هذا الصراع منشؤه الغرب الذي ما فتئ يفكر فيما يحل أزمتة الإنسانية التي يتخبط بها رغم ما وصل إليه من براعة في التقنية والنظرية على كل المستويات، وفي حين حال الغرب أصبح الشرق تتقاذفه المشاكل المادية والصراعات الداخلية التي أردته للأسف صريع سم جُرع كأسه فبات رهين آلامه التي تتخبطه بين محاولة اللحاق بالركب التكنولوجي واستيراد تداعياته الصناعية، وبين استيراد الحلول الاستراتيجية ومشاركة الغرب اهتماماته الفكرية والسعي وراء تقليد حلوله وان لم يعان نفس مشاكله. وحدثت الفوضى على مستوى الأفكار وأصبح العالم الإسلامي الشرقي كالمريض الذي لم تشخص حالته إلا أن وصفت له جميع الأدوية فأصبح يتخبط جراء التأثيرات الجانبية للجرعات التي حُددت له تارة وحددها لنفسه تارة أخرى. ووجد الباحث نفسه أمام زوبعة فكرية عنيفة أبعدته بطريقة مفاجئة عن الحبل المتين الذي كان يجب أن يتشبث به لينقذه من النتائج الوخيمة والخسائر الأكيدة، ورغم انفلات هذا المنقذ إلا أنه بقي يرقبه من بعيد كوميض يأمل وصول شعاعه إليه لكنه بعيد، وبعده هو نتيجة أسباب داخلية وخارجية؛ ليجد نفسه يحوم حوله ويأخذ بكل ما يراه ذو صلة به فتعثر ولا يزال. ورغم أن الأشكال الفكرية بدأ في الغرب لمجاهة التطرف التديني الذي مورس عليه جراء الآراء التدينية التي كانت تحكمها مصالح اقتصادية كبرى إلا أنه

سرعان ما انتقل إلى العالم الإسلامي بسرعة رغم الحصانة العلمية الموجودة في الإسلام والتي ان طبقت واقتيد لها أكسبت المسلمين الحرية والعدالة والمساواة التي يفتقرها الغرب، إلا أن مزمار الحي لا يطرب والمغلوب مولع بتقليد الغالب وان في عيوبه ومشاكله التي ان لم توجد تصطنع لتكافح بما يكافحه الغالب. وهكذا دخلت أفكار التنوير والعلمانية والحداثة وتسربت بمصطلحات أنيقة وفاتنة اشْرأبت لها أعناق المثقفين المسلمين وبذلوا النفيس لمواكبتها واللغو بلغوها وأصبحت مودة العصر. واتسعت القضايا الفكرية المطروحة إلا أن وصلت إلى غايتها الدقيقة وهي فتح باب النقاش أمام فكرة النقد الموضوعي للنص الالاهي وكسر كل المسلمات المسلمة للوصول إلى الفكر الموضوعي وتهافتت الأقلام الغربية تبني ما أسمته بالقراءة المنهجية للنص الديني وعلى رأسه القرآن الكريم الذي كان هو الهدف الأول منذ بداية الطروحات الفكرية وتهافتت من ورائها الأقلام العربية والمسلمة تشق طريقها وتنادي بالقراءة الجديدة للقرآن الكريم والسنة النبوية وكان بإمكانها ان تبذع بهذه الطريقة في الوصول إلى مراد الله إلا انها ابتعدت عنه لأن المقلد لا يملك مؤهلات الابداع.

2- المتغير الأخلاقي:

يشهد العالم اليوم أزمة أخلاقية حادة أردت الإنسانية ضحية الاطماع التي تسعى القوى الغالبة لتحقيقها فداست بذلك على كل القيم الإنسانية وأردت المعمورة إما كرامة مهانة وإما دما مسفوحا وإما تطورا سافلا لا يأبه للمعطيات الأخلاقية ولا يحتكم لأي عقل؛ لقد جنت البشرية وأصبح الأطفال يقتلون باسم حقوق الطفل وحقوق الانسان، والمرأة تهان باسم حرية المرأة والبشرية توأد باسم التقدم التكنولوجي، لقد أصبح الكذب يمارس على أعلى مستوى من الاحترافية الدولية بعدما مورس في الاسر ابتداء وفي المدارس ففاحت الأرض بالخيانة وغابت صورة الصادق الأمين. إن على ورثة الأنبياء أن يتحملوا مسؤولية المطالبة بالنهوض بالأخلاق ونبذ الممارسات اللاأخلاقية التي أضحت تمارس بكل جرأة ومجاهرة دون الحياء من الله تعالى.

3- المتغير التقني:

تشكل التقنية اليوم هاجس البشرية وأصبحت التكنولوجيا عنوان أغلب الممارسات الفعلية وسار الى جانبه الاعلام يلعب دورا خطيرا في توجيه الأفكار وصنع القرارات، ووقف العالم المسلم موقف المستهلك الذي يأكل الأخضر واليابس وأصبح سوقا من جهة ومخبر تجارب من جهة . ويقف هذا الثنائي الخطير صارخا أمام المتصدين للبحث في العلوم الإسلامية يتحداهم بفاعليتهم وتفعيلهم في الواقع الحضاري وعليه أيمارس الضابط الممهجي ليحد من الممارسات اللاشريعة لهذه التقنية المتطرة التي اكتنفت العالم تحت ماديتها وأشهرت سيف الفاعلية الميدانية، وطرحت مواضيع لم تكن لتطرح لولا هذا التطور التكنولوجي المتسارع، وعلى المجتهد المسلم أن يعي هذا الطرح وأن يعطيه الصيغة الشرعية والإنسانية ليحد من آثاره السلبية.

4- المتغير الواقعي:

يعيش العالم اليوم أحداث متجددة وأوضاع واقعية مختلفة تماما ان على المستوى العالمي او على مستوى الوقائع الداخلية من نوازل وقضايا متجددة تنتظر الفصل فيها، ولن يستطيع المنشغل بالعلوم الإسلامية السكوت عنها أو تجاهلها ؛ لأنها تمثل الواقع المعاش إن على المستوى الثقافي أو الاجتماعي أو الاقتصادي، ومما زاد حدتها التسارع الرهيب الذي أملاه الواقع المتفتح على كل المجتمعات. وهذه الوقائع تشكل تحدي كبير وتقف أمام الباحث المسلم لتمتحن قدراته وصبره وحكمته وعلمه وتمتحنه بسؤال ترجمة هذا الواقع للناس ترجمة تيسر لهم التعامل معه وتضبط تحركاتهم وفقه وتصحح نظرتهم له وسلوكياتهم في خضمه وتبعدهم عن النظرة التشاؤمية والسخط على أقدار الله تعالى وتصرفهم عن التواكل الذي يضعهم موضع الكسل وتثبيط العمل وبالتالي يعطيهم أعدار الركون إلى اللافعالية والتخلف عن الركب الحضاري، والباحث بهذا العمل يترجم الأداة الفاعلة والمحركة نحو التفعيل الحضاري وبذلك يدخل في الخيرية كما قال الرسول ﷺ: "فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه"²⁴.

²⁴ الحديث عن أنس ابن مالك، رواه ابن ماجه:195.

المبحث الثالث: دور الباحث في العلوم الإسلامية للخروج من الانسداد الوظيفي:

1-الدور البنائي:

البناء المنهجي العلمي الذاتي والبناء المنهجي العلمي الموضوعي:

بعد أن حددنا مواطن الأزمة وبعض مسبباتها وعرجنا على الحديث عن المتغيرات والتحديات التي تواجه العلوم الإسلامية نصل إلى بحث دور الباحث في العلوم الإسلامية وهو مرتبط الفرس من أجل تخطي التحديات والتعامل المنهجي مع المتغيرات والوصول إلى محاولة طرح بعض المقترحات لحل الأزمة التي تشهدها العلوم الإسلامية ، ولأن " من أصعب الازمات التي تعاني منها الأمة اليوم، هي الغياب المنهجي، أو التفكير الناهج"²⁵ فإن من أولى أولويات الباحث هو بناء التفكير المنهجي في ذاته وفي بحثه؛ لأن " المنهج هو تقنين الفكر، ودون هذا التقنين يتحول الفكر إلى تأملات وخطرات انتقائية قد تكون عبقرية ومشرقة جدا وذات جدوى في كثير من الأحيان وتصلح للمواعظ والمجادلة الحسنة ولكنها لا تكون منهجية"²⁶، من أجل ذلك يجب على الباحث أن يبني نفسه منهجيا وفق خطوات وفيما يلي تفصيل ذلك:

أولاً: البناء المنهجي العلمي الذاتي:

إن اشتغال الباحث ببناء ذاته من أولى أولويات دوره الاستراتيجي في العلوم الإسلامية؛ ذلك أنه محور كل الأدوار؛ فإذا نجح في هذا الدور الأساس نجح بباقي الأدوار وإلا فإنه لن يرتق لتحقيق التغيير الذي يسعى إليه.

فمهمة الباحث ابتداء هو البناء العلمي المنهجي الذاتي والمتمثل في ترسيخ الإيمان في قلبه حيث يؤكد " جميع المهتمين بمسألة التقدم على جعل التربية الروحية عنصرا مركزيا في إيجاد الفاعلية، لأن أزمنا أخلاقية أكثر من أن تكون معرفية...والوظيفة الاصلية المنتظرة من التربية الروحية هي تصفية القلب عما سوى الله ولله تعالى، وفي ذلك أكبر عوامل تهيئة المسلم للتقدم"²⁷ مصداقا لقوله تعالى: ﴿ فَاعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾²⁸، وقوله تعالى في أول آية نزلت على رسول الله تعالى لبناء المنهج العلمي للإنسانية جميعا:

²⁵ فريد الانصاري، أبعديات البحث في العلوم الشرعية، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، ط:1، 1997، ص:23.

²⁶ أبو القاسم حاج حمد، المنهجية المعرفية في القرآن العظيم، دار الهادي للكتاباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط:1، 2003، ص:34..

²⁷ عمار جيدل، الأمة الإسلامية، الواقع والمأمول، مجلة الاحياء كلية العلوم الإسلامية باتنة، العدد:8، 2004، ص:328.

²⁸ محمد:19

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾²⁹؛ ففي ربط القراءة باسم الله تعالى قمة التوحيد، وهذه الخطوة الدقيقة والعميقة لا يمكن بأي حال الاستغناء عنها لأنها مفتاح العقل والتعقل؛ ولعلنا وضحنا في المدخل العلاقة العلمية الوطيدة بين القلب والايمن والعقل؛ فلوصول الباحث لمرتبة العقل والتعقل عليه ترسيخ الايمان وبناء التوحيد في قلبه وتوجيه بحثه توجيهها توحيديا حيث يحقق الإخلاص في كل حيثياته؛ فإذا ما تحقق الإخلاص تفتقت لديه منابع الفقه وتجلت مفاتيح القضايا وتولدت سبل الحكمة فيصبح قادرا على امتلاك الملكة العلمية أو النفس العلمي الذي به يستطيع فهم النص الالهي ومقاصده من جهة وفهم الواقع وتداخلاته من جهة أخرى فاستطاع بعد ذلك نسج عملية تنزيل النص على الواقع ليكتمل الفقه وتصح الفتوى وتسير أوضاع الناس على ما ينفعهم وهنا يكون قد حل التوفيق الالهي الذي يُستجلب بالدعاء بعد الإخلاص، وهذه العملية الدقيقة غائبة عن كثير من الباحثين ظنا منهم أن العلمية والموضوعية تبدأ باستحضار آليات البحث ووسائله واجراءاته استحضارا شهوديا دون المدد الغيبي³⁰ الذي له المرجعية القاعدية في اعدادات البحث، فمهرعون إلى قراءة العدد غير الهين من الكتب والمراجع التي تقودهم إلى اتقان عملية البحث -وليس في هذا عيب علمي- غير أنهم يجهلون أو ينسون أن يهرعوا إلى قلوبهم لإعدادها للبحث رغم ما في هذا الاعداد من الأهمية العظمى التي تكسب البحث الضابط التعبدي الذي هو بمثابة الحصن الذي يدفع عن البحث غوائل الأخطاء والصعاب وعوائق السير الجدي والموضوعي؛ ليصبح الوصول الى البحث واتقانه بالعبادة من جهة ويصبح البحث في حد ذاته عبادة يتقرب به إلى الله تعالى من جهة أخرى؛ فإذا كان هذا حال الباحث فإن بحثه سيرضخ لمعايير تضبطه على رأسها التقوى التي ستنجر عنها باقي المعايير كالصدق والشجاعة العلمية والامانة العلمية والجدال بالتي هي احسن وتقبل الحق وعدم غمط حقوق الآخر واحترام آراء الغير والموضوعية ليصبح الضابط التعبدي " هو صمام الأمان الذي يضمن له ولغيره الإخلاص في العمل والنصح فيه لنفسه ولمجتمعه وللبشرية كلها. لا أشرف ولا أنبل للعالم من القصد العبادي في مشروعه العلمي"³¹؛ وبهذا تتولد الأخلاق لدى الباحث ابتداء في شخصه كإنسان فتصبح عنوانا له اقتداء بالرسول ﷺ الذي كان خلقه

²⁹ العلق: 01.

³⁰ لا أقصد بالمدد هنا المصطلح الصوفي ولا أقصد بالغييب التواكل لكن أقصد المعالجة القلبية اخلاصا ودعاء. وعلى العموم الفكرة تبدو معقدة لا يمكن فهمها الا بربط الايمان بالهداية والتوفيق والعلم.

³¹ فريد الانصاري، أجديات البحث في العلوم الشرعية، ص: 25.

القرآن وانتهاءً بشخصه كباحث؛ فلا يقول إلا الحق ولا يبحث إلا فيما ينفع ولا يعالج إلا ما هو واقع؛ فيختزل على البحوث الإسلامية جملة من المواضيع التي ارهقت كاهل الأمة وأحدثت تراكما رهيبا شكل فاصلا معرفيا بين قضايا الأمة الحية ومنبع العلم الصافي الذي هو ملاذ البحث والباحث. ويختزل على المجتمع الإنساني جملة من الصراعات الفكرية والمذهبية التي مزقت شمله وحيرت مساره وأفقده توازنه، وبالموازات مع بحثه يظهر فعله وسلوكه مؤيدا للحق ناطقا به له مواقف التي تدعو الى المعروف وتنهى عن المنكر، فيحدث بذلك تغييرا فكريا وسلوكيا، وبهذا يكتسب المصادقية القولية والفعلية فيمثل الإسلام خير تمثيل.

ثانيا-البناء الموضوعي:

بعد البناء الذاتي يأتي البناء الموضوعي المعرفي، وذلك وفق معطيات منهجية يتوجب على الباحث الأخذ بها وفيما يلي ذكر أهمها:

■ الرجوع إلى القرآن الكريم والسنة الصحيحة ابتداء (بناء منهج التعامل مع النص القرآني) وهذا الرجوع يكون بالتعبد والتعلم بالتوازي؛ فالورد القرآني وحفظ القرآن الكريم له مكانته ومدارسته لفهمه والانطلاق منه والرجوع اليه له مكانته أيضا، وهناك مسألة في غاية الأهمية تخص منهجية التعامل مع القرآن الكريم فالباحث في العلوم الإسلامية يجب أن تكون له نظرات منهجية في التعامل مع القرآن كما قررها القرآن نفسه لا كما قررتها النظريات الغربية الحديثة، وإذا ما طالعها فإنه يطالعها بنظرة نقدية حذرة فيأخذ ما يتناسب وطبيعة القرآن الكريم ويرفض ما يمس بقداسة القرآن الكريم.

■ التعامل المنهجي مع التراث الإسلامي والغربي: من أجل إخراجها من التقديس حيث يجب وضع التراث في موضعه النسبي حيث أنه لا يعدو أن يكون أفكارا ومعالجات وتفسيرات لواقع متغير يجب أن نبحت عن تحقيق أهداف محددة من وراء فهمه، وإعادة اكتشافه تتمثل جملة في تحقيق التواصل والتراكم ومعرفة المنهاج والأنساق المعرفية التي سادته والاستفادة من الأفكار والأفهام الصالحة فيه لزماننا ومكاننا"³²

³² طه جابر العلواني نحو منهجية معرفية قرآنية، دار الهدى، بيروت، ط:1، 2004، ص:238.

■ التجديد المصطلحي والخروج من رهاب المصطلح الغربي: وتمثل هذه القضية ثقلا معرفيا في الوقت الحاضر: حيث تعتبر المصطلحات ترجمة المفاهيم التي عليها ينبني الوعي المعرفي؛ ذلك " ان الاهتمام بالمفاهيم المكونة للذات ينبغي بل يجب الأولويات. ولا قيمة لاهتمام في ميزان الغد الحضاري المنتظر، ما لم يؤسس على العلمية أولا ثم على المنهجية ثانيا ثم على التكاملية شرطا في السير الراشد ثالثا"³³؛ وذلك من أجل معالجة ظاهرة التوافد المصطلحي وتلقيه من قبل مثقفي الأمة وتقبله دون تمحيص في كثير من الأحيان، رغم أنه يجب أن يعامل معاملة منهجية بتلقيه " من خارج الذات واستيعابه عند أهله، بلغات أهله ثم بتتبع آثاره فينا بالدرس العلمي لا بالخرص، لأن ذلك الذي يمنعنا من أن نظلم أو أن نُظلم، ويؤهلنا للشهادة على الناس بحق"³⁴

وفي الوقت الذي تمحص المصطلحات الوافدة هناك خطوة منهجية علمية مهمة جدا وهي الاهتمام باللفظ القرآني واستخراج معانيه القرآنية من أجل بناء المفاهيم العلمية الصحيحة التي نستطيع وفقها بناء خلفية معرفية أصيلة، ويبدو أن هذا المشروع بدأت معالمه تظهر من خلال البحوث الأكاديمية التي تقدمها الجامعات ومراكز البحث.

■ مناقشة ما يسمى بالمسلمات المعرفية في نظرية المعرفة الغربية ووزنها بميزان القرآن الكريم والخروج من المفاهيم الخاطئة التي توارثتها الأجيال الإنسانية فاستحالت الى مسلمات رغم ما فيها من تجاوزات في الاطلاق والممارسات والتأكد والتأكيد على أن "الإسلام منهجا ومضمونا ومحتوى ورؤية ومقاصد وقواعد فيه الحل ان شاء الله تعالى لازمة المعرفة هذه ووضعها في الاطار الصحيح الذي يحقق غايات الانسان المسلم ويلبي احتياجات الانسان بصفة عامة"³⁵، وتجاوز الأخطاء التي لا تزال تثقل كاهل المعرفة وتزج بها إلى مزيد من الغموض من خلال المفاهيم الخاطئة، وكمثال على ذلك التقديم الخاطئ لمفهوم العلم والعقل؛ والذي بدأت معالمه تظهر في الدراسات المصطلحية الجادة التي اتخذت القرآن الكريم مصدرا للمفاهيم العلمية، وبدوا أنه في قابل الأيام ستتضح بنى مفاهيمية أصيلة تشكل قيمة علمية مضافة تساهم الى حد بعيد في تشكيل القلب العاقل الذي عليه مدار فهم الواقع والتعامل معه.

³³ الشاهد البوشيخي، نظرات في المنهج والمصطلح، مطبعة أنفو، فاس، المغرب، ط:3، 2004، ص:10.

³⁴ المرجع نفسه، ص:12.

³⁵ طه جابلا العلواني، نحو منهجية معرفية قرآنية، ص:261.

■ صياغة المواضيع صياغة علمية وتجاوز المواضيع الفكرية العقيمة التي لا يبني عليها اعتقاد وعمل، ولعل الشاطبي قد أبدع أيما ابداع عندما وضع مقدمة كاملة عن هذا الموضوع الذي عبر عنه بقوله: " كل مسألة لا يبني عليها عمل؛ فالخوض فيها خوض فيما لم يدل على استحسانه دليل شرعي"³⁶

والباحث في العلوم الإسلامية بحاجة ماسة إلى هذه الخطوة لتخطي الصراعات الفكرية والمناقشات الجدلية التي تملأ التأليف دون جدوى علمي عملي.

■ السعي للتكامل المعرفي بين التخصصات في العلوم الإسلامية من جهة وبين العلوم الإسلامية والتخصصات الأخرى العلمية منها والإنسانية من جهة أخرى من أجل الخروج من زنزانة التخصص العميق الذي وان كانت له مبرراته المعرفية إلا أنه " لا يسوغ الاعتقال في خانة التخصص الدقيق، الذي لا يملك معه أصحابه فضاء علميا واسعا"³⁷؛ يستطيعون من خلاله معالجة القضايا العملية من كل جوانبها وتجاوز الحل الضيق لها، وهذه العملية لا يمكن أن تقوم بعمل فردي نظرا للتوسع المعرفي الحاصل؛ وإنما تحتاج في قيامها إلى فرق بحث ومختبرات متنوعة التخصص يكون العمل فيها مبنيا على المنهجية العلمية في خدمة العلم بهدف إرضاء الله تعالى ثم خدمة الإنسانية بعيدا عن التكتلات الفكرية والصراعات المذهبية والانتماءات السياسية التي تعتبر السبب الرئيس في افساد الأعمال وادخالها حيز اللافعالية، "إن التكامل المعرفي كما كان في العصور الأولى لتأسيس المعرفة الإسلامية، والذي تجسد خصوصا في العقل الموسوعي الشامل لشتى المعارف؛ أي أن الفقيه المجتهد المبنية ثقة إنتاجه الاجتهادي على شرط الامام بعلوم متنوعة، منها ما يتعلق بالوحي ومنها ما يرتبط بالملكف ونفسيته، ومنها ما يتعلق بالواقع المعيش ومتغيراته الإنسانية، فإنه قد أضى ضرورة ملحة والحاجة إليه واردة خصوصا في العصر الحاضر المتسم بالتطور السريع والمتشعب بتعدد التخصصات الدقيقة"³⁸.

³⁶ الموافقات، 42، 43/1.

³⁷ عماد الدين خليل، ازدواجية التعليم الجامعي مريثات للخروج من الأزمة، من الكتاب الجامعي: التكامل المعرفي، المعهد العالمي للفكر

الإسلامي، ط: 1، 2012، ص: 715.

³⁸ الحسان الشهيد، التكامل المعرفي بين علوم الوحي وعلوم الكون مجلة المسلم المعاصر، عدد 150، 2013.

2- الدور التجديدي:

يعتبر الحديث عن التجديد من الأحاديث الفكرية المهمة والتي تستمد جذورها من حديث النبي ﷺ: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها"³⁹ فبعد الدور البنائي يأتي الدور التجديدي الذي يستطيع من خلاله الباحث صياغة العلوم الإسلامية صياغة واقعية قابلة للتطبيق؛ والعملية التجديدية هي صيانة الدين من أن يبلى وإلا فإن أصله باق وجوهره قائم وهذا ما يعنيه التجديد على حقيقته التي تعني: "العودة إلى الأصول وإعادة أحيائها من جديد"⁴⁰

إن الحديث عن التجديد له ضابطه المنهجي الذي يجب أن ينضبط وفقه من أجل أن يأخذ لفظ التجديد مأخذه الصحيح ولا يشيط عن مساره فتعبث به الأهواء وتحيد به الآراء؛ عن هذا المنهج تحدث الكثير من العلماء، وبداية المنهج تنطلق من الرجوع إلى الأصول، ولا معنى للتجديد بعد ذلك ما لم تتجدد في النفوس، كما لا يمكنه أن يقوم إلا بعد اكتمال العمل البنائي لذلك فإنه عمل دقيق لا يستطيع القيام به إلا من رُزق الحكمة ورزق النفس والحس الرسالي؛ إذ أنه " لا تثور الحاجة إلى التجديد إلا في مواجهة التحديات، فالذين لا يشعرون بالتحدي، ويمارسون الاطمئنان اليومي إلى ما هم عليه في الثقافة والفكر لا يحتاجون إلى البحث في ضرورة التجديد الفكري أو إعادة النظر فيما استقر عليه وضعهم الثقافي. ولا تثور الحاجة إلى التجديد، عند وقوع التحدي، إلا بالنسبة لمن لديهم أصل ثابت يعترفون به، ومرجع صادق يجعلونه معيار الصواب والخطأ والمقبول والمرفوض مما يُعرض عليهم، أو يعرض لهم، من أفكار تتجدد بتجدد الزمان، وتتجدد الخصوم، أي بالتحديات الحادثة"⁴¹، " لذلك بات من الضروري تجديد المناهج اليوم على أيد كفاءة وأصيلة مؤهلة تنطلق من مبدأ الحاجة الفعلية التي يقتضيها واقعنا المعاصر، ومتطلبات المرحلة على نحو من الوعي الحضاري، والحصافة والادراك للملابسات الواقع وعقيداته"⁴²

³⁹ رواه أبو داود، رقم: 4291 وصححه السخاوي في المقاصد الحسنة: 149، والألباني في السلسلة الصحيحة: 599.

⁴⁰ مسعود فلوسي، وجهة نظر في تجديد العلوم الشرعية مقال جريدة البصائر الجزائرية العدد 1852 أبريل 2017 ص 18

⁴¹ محمد سليم العوا، التجديد في الفكر الإسلامي رؤية معاصرة، منتدى الفكر الإسلامي، مجمع الفقه الإسلامي بجددة، 2006، ص: 2.

⁴² أحمد الدغشي، المناهج التربوية وتحديات المرحلة، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، 2018، ص: 18.

وبناء على هذا التجديد تتنوع المواضيع المطروحة للبحث في الجامعات ومراكز البحث وتصبح الوقائع والأحوال المعاشة على الصعيد الداخلي والدولي هي مناط الاشتغال والبحث من أجل معالجتها وإعطاء تحليل واقعي لمجرياتها ولما لا إيجاد الحل وتطبيقه على أرض الواقع، وعلى هذا الأساس تصبح العلوم الإسلامية محركاً للأحداث وحاضرة في أحوال الإنسانية تصوب أخطاءها وتذود عن كرامتها وتلجم الظالم وتحد من بطشه وطغيانه وتربط الدنيا بالآخرة فتصبح لها قدم صدق ويد في تغيير الأوضاع نحو التفعيل الحضاري المرتقب.

3-الدور التفعيلي:

يأتي الدور التفعيلي انتهاء كتنويع لتلك الأدوار التي تكبدها الباحث الفقيه ليصل إلى الشهود الحضاري ويضع بصمته الفعلية التي ستشهد عليه أمام رب العالمين فيتمثل قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرِّيَ اللَّهُ عَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾⁴³ ، ويلتقي مرة أخرى بعبادته متمثلة في الفعل الانجازي الذي يترجم نيته ابتداءً ، وتعتبر هذه الخطوة بمثابة التنويع للمراحل الأولى لا يمكن أن يصلها إلا بعد مكابدة وصبر ومصابرة وعلى قدر الجهد يكون الجزاء، غير أن هذا الدور لن يكتمل الا بخطوة منهجية جادة ؛ وهي أن يكون هذا الباحث متقلداً لمنصب تنفيذي له القدرة على صناعة القرار وتنفيذه، فالوصول الى هذه المرتبة يخول لمجهوداته التجديدية أن ترى النور لتلج الى الواقع المعاش وتخرج من دائرة التنظير الى ساحة التنفيذ؛ غير ان هذا السبيل تتخلله فجوتين أما الأولى هي طبيعة اغلب الباحثين ذوي الحكمة التي تأبى الانخراط في مثل هذه المناصب لما تصطبغ به من الصبغة السياسية، أما الثانية فهي متعلقة بالذين يتقلدون مناصب التنفيذ حيث أنهم لا يحبون مثل هذه الشريحة المفكرة لتنقاد اليهم. وعلى الجميع مفكرين كانوا أم ذوي المناصب التنفيذية أن يسعوا إلى إيجاد صيغة عملية تطبيقية تتلاقح فيه الآراء وتشتبك به الجهود من أجل الوصول إلى إخراج الجهود المبذولة إلى نور التطبيق وعدم غمط حقها بوأدها ووأد مشروع التفعيل الحضاري والخروج من الانسداد الوظيفي للأمة المسلمة الذي تدفع ضريبته الأسرة الإنسانية بأسرها، لأنه كلما تأخر الحل زادت المعاناة وكبرت الشقة بين المشاكل المتراكمة والحلول المغيبة والموقوفة التنفيذ.

⁴³ التوبة:105.

خاتمة:

إن ما أود ذكره في ختام هذه الورقة البحثية هو أن غياب تحقق الشهود الحضاري للأمة الشاهدة لا يعني على الإطلاق غياب هذه الأدوار للمجتهدين والباحثين والفقهاء ممن ألوا على أنفسهم حمل الرسالة الإسلامية واستلام إرث النبوة الطاهر؛ فالجهود مبذولة والنوايا بإذن الله تعالى صادقة والأخطاء موجودة ونية تصحيح الأخطاء والتقدم قدما نحو تحقيق المشروع الحضاري قائمة، غير أن هذه الجهود لم تكتمل بعد لتخرج الأمة الإسلامية ومعها الاسرة الإنسانية إلى بر الأمان وإلى أن يتحقق ذلك يبقى لكل مجتهد مخطئ أجر ولكل مجتهد مصيب أجران. والحمد لله رب العالمين.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن القيم، الفوائد: طبعة نزار مصطفى الباز، الرياض، د.ت.
- أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات، المقدمة الخامسة.
- أبو القاسم حاج حمد، المنهجية المعرفية في القرآن العظيم، دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت-لبنان، ط.1، 2003م
- إسماعيل راجي الفاروقي، التوحيد ومضامينه على الفكر والحياة، ترجمة: السيد عمر، مدارات للأبحاث والنشر، دط، 2014
- الشاهد البوشيخي، نظرات في المنهج والمصطلح، مطبعة أنفو، فاس-المغرب، ط.3، 2004
- جودت سعيد، اقرأ وربك الأكرم، دار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان، ط.2، 1993
- طه جابر العلواني نحو منهجية معرفية قرآنية، دار الهدى، بيروت-لبنان، ط.1، 2004.
- عبد الحميد احمد أبو سليمان، أزمى العقل المسلم، دار الهدى، بيروت-لبنان، ط.1، 2003
- عبد الرحمن الطريفي، العقل العربي وإعادة التشكيل، مقدمة: عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة، قطر، ط.1، 1413هـ
- عماد الدين خليل، ازدواجية التعليم الجامعي مراثيات للخروج من الأزمة، من الكتاب الجامعي: التكامل المعرفي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط.1، 2012
- عمر عبيد حسنة، رؤية في منهجية التغيير، المكتب الإسلامي، بيروت، ط.1، 1994
- فتحي يكن، الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، دط، 1983
- فريد الانصاري، أبحاث في العلوم الشرعية، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، ط.1، 1997
- محمد سليم العوا، التجديد في الفكر الإسلامي رؤية معاصرة، منتدى الفكر الإسلامي، مجمع الفقه الإسلامي بجدة، 2006
- محمد عمار، الدين والحضارة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة-مصر، ط.1: 2005
- يوسف القرضاوي، أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة، دط، دت
- أحمد الدغشي، المناهج التربوية وتحديات المرحلة، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، 2018.
- مسعود فلوسي، أزمة العلوم الإسلامية في واقع الأمة، مقال، حصائل الاعمال العلمية للملتقى الوطني الأول حول دور العلوم الإسلامية في إرساء الهوية ومواجهة التحديات المعاصرة، 2010، جمع مبروك زاد الخير، جامعة الأغواط
- الحسان الشهيد، التكامل المعرفي بين علوم الوحي وعلوم الكون، مجلة المسلم المعاصر، ع. 150، 2013.
- عمار جيدل، الأمة الإسلامية، الواقع والمأمول، مجلة الاحياء كلية العلوم الإسلامية باتنة، ع: 8، 2004
- كمال ججيش، المنهجية في العلوم الإسلامية، مظاهر الأزمة ومفاتيح التجاوز، مجلة جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، الجزائر، مج: 2، ع: 27
- كمال عبد اللطيف، تأصيل العلوم الإنسانية في الفكر العربي المعاصر الشروط المعرفية والتاريخية، مجلة فكر ونقد، اع. 18، 1999
- مسعود فلوسي، وجهة نظر في تجديد العلوم الشرعية، مقال جريدة البصائر الجزائرية، ع. 852، أبريل 2017